مجلة تسليم
Journal Homepage: https://tasleem.alameedcenter.iq
ISSN: 2413-9173 (Print) ISSN 2521-3954 (Online)

# بَلَاْغَةُ المَعْنَى وَفَصَاحَةُ الخِطَاْبِ دِرَاْسَةٌ تَطْبِيْقِيَّةٌ فِي أَقْوَاْلِ الإِمَاْمِ الحَسَنِ العَسْكَرِيِّ عليه السلام

**جمانة إبراهيم داؤد** [1]

١ جامعة طرطوس / كلية الآداب والعلوم الإنسانية / قسم اللغة العربية، سوريا؛

Joumanadaoud1973@gmail.com

دكتوراه في اللُّغة العربيَّة / مدرِّس

| تاريخ التسلّم | تاريخ القبول | تاريخ النشر |
| --- | --- | --- |
| ٢٠٢٤/٥/٥ | ٢٠٢٤/٦/٤ | ٢٠٢٤/١٢/٣١ |

**المجلـد (٢٠) العـدد (٣٢)**
**جُمَادَى الآخرة ١٤٤٦هـ . كَانُون الأوَّل ٢٠٢٤ م**

DOI:
10.55568/t.v20i32.81-96

**مُلَخَّصُ البحْث:**

يسعى البحث إلى استنطاق النصوص ودراستها بلاغيًّا من خلال بعض النماذج المختارة من أقوال الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، فكان المبحث الأوَّل مهاداً نظريًّا لمفهومات البحث، ويأتي المبحث الثاني تطبيقيًّا؛ إذ يقف البحث عند كلِّ قول محاولاً تلمُّس الجمال والبلاغة في تلك الأقوال الشريفة والحِكَم الخالدة.

توسَّل البحث بالمنهج التحليليّ الوصفيّ، فيقف عند المعاني الأُوَل للأقوال ثُمَّ يحاول استكناه معانيها البعيدة، ليعيد بناء النصِّ وفقاً لتلك الفنون البلاغيَّة بما ينسجم مع معانيها الشريفة.

**الكلمات المفتاحيَّة:** بلاغة المعنى، فصاحة الخطاب، الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام.

# Content Eloquence and Discourse Articulation (Applied Study on Sayings of Imam Hassan Al-Askari)

**Jumana Ibrahim Dawood** [1]

1 University of Tartous/ College of Arts and Humanities/ Depatment of Arabic, Syria;

Joumanadaoud1973@gmail.com

PhD. in Arabic Language/ Lecturer

| Received: | Accepted: | Published: |
|---|---|---|
| 5/5/2024 | 4/6/2024 | 31/12/2024 |

DOI: 10.55568/t.v20i32.81-96

Volume (**20**) Jumada Alakhirah 1446 AH.
Issue (**32**) December 2024 AD

**Abstract:**

This research aims to analyze and study selected texts rhetorically through various examples from the sayings of Imam al-Hassan al-'Askari (peace be upon him). The first section serves as a theoretical foundation for the concepts of the research, while the second section is practical to examine each a saying, seeking to uncover the beauty and eloquence in these noble statements and timeless wisdom.

The research employs a descriptive analytical approach, exploring the primary meanings of the sayings and then attempting to uncover their deeper meanings to reconstruct the text in accordance with rhetorical arts that align with their sacred meanings.

**Keywords:** Eloquence of meaning, Articulacy, Expression, Imam al-Hassan al-'Askari (p.b.u.h.).

**المقدِّمة:**

تتناول هذه الدراسة نصوصاً قائمة على الحكمة والسداد، قالها الإمام الحسن العسكريّ ﷺ في مناسبات مختلفة، كلُّ قول منها هو الفصل في موضوعه والموجَّه والهادي للناس في كلِّ زمان ومكان. فسعت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على هذه النصوص من وجهة بلاغيَّة مبنيَّةٍ على علم البيان والبديع والمعاني.

توسَّل البحث بالمنهج التحليليّ الوصفيّ، لمناسبته لهذه الدراسة، بدأ البحث بمقدِّمة، ثُمَّ جاء المبحث الأوَّل نظريًّا يوضِّح مفهومات البحث؛ إذ عرَّف البلاغة لغة واصطلاحًا وكذلك الفصاحة، ثُمَّ عرَّج على تعريف الخطاب، وبعد ذلك موجزُ عن حياة الإمام الحسن العسكريّ ﷺ، ليأتي بعد ذلك المبحث الثاني تطبيقيًّا؛ إذ يعرض القول ثُمَّ يبدأ بتناوله من جوانب بلاغيَّة مختلفة، تسفر عن قوَّة المعنى وجودة التركيب ودقَّة العبارة. اختُتِمَ البحث بخاتمة تضمَّنت النتائج التي توصَّل إليها الباحث في هذه الوريقات البحثيَّة.

**المبحث الأوَّل: مفهومات البحث**

**أ-مفهوم البلاغة:**

**البلاغة في اللُّغة:** جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٠): "بلغَ: بليغٌ، وقد بلغ بلاغة، وبلغ الشيء يبلغ بلوغاً، وأبلغه إبلاغاً، وبلغتهُ تبليغاً في الرسالة ونحوها، وفي كذا بلاغ وتبليغ، أي كفاية وشيء بالغ".[١]

وورد في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ): "بلغ الشيء يبلغ بلوغاً بلاغاً: وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغاً وبلّغه تبليغاً، والبلاغة: الفصاحة (..) وقد بُلغ بالضم بلاغة أي صار بليغاً وقولٌ بليغٌ: بالغٌ وقد بلغ".[٢]

نستنتج ممَّا سبق أنَّ المعنى اللُّغويّ للبلاغة يتلخَّص في أنَّ البلاغة تعني الوصول والانتهاء إلى الشيء أو الكفاية وكذلك أطلقت على فصيح اللِّسان عند بلوغه ما يريد فهي مرادفة للفصاحة، فعندما يقول المتكلِّم كلاماً ويصل إلى غايته يطلق عليه كلاماً بليغاً.

١ الفراهيدي، الخليل بن أحمد .العين، ج١، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢)، ١٦١، مادة بلغ.
٢ ابن منظور، لسان العرب، مج١، ط٥ (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٥)، ١٣٤، مادة بلغ.

**البلاغة في الاصطلاح**: لقد حظي مصطلح البلاغة عند العرب بمكانة عالية، فقد تناوله العديد من علماء البلاغة في كبتهم. ففي كتاب "البيان والتبيين" تعريفات كثيرة للبلاغة عند العرب وغيرهم، فقد قيل للفارسيّ: "ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليونانيّ: ما البلاغة: قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة: البصر بالحجَّة والمعرفة بمواضع الفرصة".[٣]

وقال الأصمعيّ عن البليغ أنَّه: " من طبَّق المفصَّل وأغناك عن المفسَّر".[٤]

وقال العتابيّ:" إنَّ كلَّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإن أردت اللِّسان الذي يروق الألسنة ويفوق كلَّ خطيب فإظهار ما غمض من الحقِّ وتصوير الباطل في صورة الحقِّ" [٥].

ولم يعرِّفها الجاحظ إلَّا بعد أن ذكر كثيراً من تعريفاتها، واكتفى بأن اختار قولاً أعجبه، فيقول: "وقال بعضهم –وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوَّنَّاه- لا يكون الكلام يستحقُّ اسم البلاغة حتَّى يسابق معناه لفظهُ، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك".[٦]

وكان الخطيب القزوينيّ آخر من وقف عند البلاغة من المتأخِّرين وميَّز بين بلاغة الكلام وبلاغة المتكلِّم، فقال عن الأولى:" أمَّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته" وقال عن الثانية:" وأمَّا بلاغة المتكلِّم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ"[٧]

وقسَّم البلاغة على ثلاثة أقسام، فكان ما يحترز به عن الخطأ علم المعاني، وما يحترز به عن التعقيد المعنويّ علم البيان، وما يعرف به عن وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته علم البديع.[٨]، ولم يخرج البلاغيُّون المتأخِّرون عن هذا التعريف والتقسيم، وأصبح مصطلح البلاغة يضمُّ هذه العلوم الثلاثة.

٣ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين، ج١، تحقيق. عبد السلام هارون (مطبعة الخانجي، د.ت.)، ٨٨.
٤ الجاحظ، ١٠٦.
٥ الجاحظ، ١١٣.
٦ الجاحظ، ١١٥.
٧ القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط١ (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ٢٠- ٢١.
٨ القزويني، ٢٢.

**ب-مفهوم الفصاحةِ:**

**الفصاحةُ لغةً**: الظهورُ والبيانُ، تَقُولُ: أفْصح الصُّبْحُ إذا ظَهَر. والكلامُ الفصيحُ ما كان واضحَ المعنى، سهل اللَّفظِ، جيِّدَ السَّبك. ولهذا وجبَ أن تكون كلُّ كلمة فيه جاريةً على القياس الصَّرفيّ، بينةً في معناها، مفهومةً عَذْبةً سلِسةً. وإنَّما تكونُ الكلمة كذلك إذا كانت مأْلوفَةَ الاستعمال بَين النابهين من الكتَّاب والشعراءِ، لأنَّها لم تَتَداولها ألسِنتُهم، ولم تَجْرِ بها أقلامهم، إلَّا لمكانها من الحُسْن باستكمالها جميع ما تقدَّم منْ نُعوت الجوْدة وصِفاتِ الجمال[٩].

**الفَصاحةُ اصطِلاحًا:**

قال الجُرْجانيُّ: "وهي -أي الفَصاحةُ- في المفرَدِ: خُلوصُه من تنافُرِ الحروفِ والغَرابةِ ومخالفةِ القياسِ، وفي الكلامِ: خُلوصُه من ضَعفِ التَّأليفِ وتنافُرِ الكَلِماتِ، مع فصاحتِها،... وفي المتكَلِّم: مَلَكةٌ يُقتَدَرُ بها على التَّعبيرِ عن المقصودِ بلَفظٍ فصيحٍ[١٠].

وقال الرَّازيُّ: "الفَصاحةُ: خُلوصُ الكلامِ من التَّعقيدِ.[١١] "وقيل: "الفَصاحةُ: عبارةٌ عن الألفاظِ البيِّنةِ الظَّاهِرةِ، المتبادِرةِ إلى الفهمِ، والمأنوسةِ الاستعمالِ بَيْنَ الكُتَّابِ والشُّعَراءِ لمكانِ حُسنِها... وفصاحةُ الكلامِ: سلامتُه بعدَ فَصاحةِ مُفرداتِه ممَّا يُبهِمُ معناه، ويحولُ دونَ المرادِ منه[١٢]".

وهكذا نجد أنَّ الفصاحة تنتمي للألفاظ وترتبط بها، فهي تطلق على المفردات والجمل التي يحسن سبكها ونسجها لتنال الاستحسان وتطرب لها الأسماع، سواء أصابت المعنى أم كادت.

**ج-مفهوم الخطاب: تعريف الخطاب:**

إنَّ مفردة الخطاب في الموروث العربي تدلُّ بوضوح على التّفاعل والتشارك المعرفيّ واللُّغويّ بين أكثر من جهة، فالخِطاب هو عمليَّة تفاعليَّة تقوم على حالة من المراجعة للكلام، وعندما نقول عن شخص ما: خاطبه لرفيقه من خلال الكلام خطابًا ومخاطبة،

---

٩ الزبيدي، محمد مرتضى الحيني. تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق. إبراهيم الترزي (دار إحياء التراث العربي ببيروت، د.ت.)، ج١/ ١٠.

١٠ الجرجاني، علي بن محمد الشريف .معجم التعريفات،، تحقيق ودراسة. صدِّيق المنشاوي (القاهرة – مصر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ٢٠٠٤)، ١٦٧.

١١ الأبشيهي، شهاب الدين. المستطرف في كلِّ فنٍّ مستطرف، قدم له وعلق عليه. مفيد قميحة (بيروت – لبنان: دار الكتب العمية، د.ت.)، ٥٠.

١٢ الهاشمي، أحمد. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق. يوسف الصميلي (بيروت – لبنان: المكتبة العصرية، ١٩٩٩)، ١٩_ ٣٢.

وهما كلاهما يتخاطبان... والمخاطبة على وزن مفاعلة وهي من المشاورة والخطاب[١٣].

ويذهب (فاتح زيوان) في مقال له تحت عنوان (نحو خطاب نقديّ عربيّ معاصر) إلى أنَّ "التلازم الدلاليّ الواضح بين مفهومَي الخطاب والكلام وترادفهما اللُّغويّ على مستوى اللَّفظ، يشير إلى أصول المصطلح الشفهيَّة، ذلك أنَّ دلالة المصطلح لم تقترن بعلامة مكتوبة بل ارتبطت بالمستوى الشفهيّ تحديداً. [١٤]

فهذا اللَّفظ يدلُّ على لغة مستعملة، أو على استخدام لغويّ، ولا يدلُّ على اللُّغة بوصفها نظاماً من الأنظمة المجرَّدة [١٥]، وعلى الرغم من هذا فإنَّنا نجد أنَّ غالبيَّة الذين كتبوا عن مصطلح (الخطاب) من العلماء المحدَثين قد أشاروا إلى أنَّ هذا المصطلح يتَّصف بالضبابيَّة، وأنَّه يتداخل مع سواه من المصطلحات، والخلاف في دلالاته ومعانيه في الفكر المعاصر، وهذا أمر يماثل إلى درجة ما ذلك الخلاف المثار من أجلها في أقوال مفسِّري القرآن الكريم، وفي العلم الأصوليّ في التّراث القديم العربي، فهذه اللَّفظة تحمل مفهومًا ودلالات متباينة يحتاج معها الدارس إلى كثير من البحث والتأمُّل بغية القبض على القيمة المفهوميَّة الكامنة فيه.

**د- من حياة الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام:**

ولد الإمام العسكريّ عليه السلام إمام الشيعة الحادي عشر عام ٢٣٢ هـ، أبوه هو الإمام الهادي عليه السلام الإمام العاشر؛ وأُمُّه امرأة زاهدة مؤمنة اسمها: حُدَيثة [١٦]، وقال بعض: إنَّ اسمها سوسن[١٧]، وقد كانت من العارفات الصالحات، وكفى في فضلها أنَّها كانت مفزع الشيعة بعد وفاة أبي مُحَمَّد وفي تلك الظروف الحرجة.[١٨]

ولأنَّ الإمام كان يقيم في سامرّاء مجبراً في حيٍّ يسمّى بالعسكر بناءً على أمر الخليفة العبَّاسيّ سُمِّي لذلك بالعسكريّ[١٩].

١٣ البسيوني، محمود. تربية الذوق الجمالي )القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٦)، ١٦.
١٤ فاتح زيوان، "نحو خطاب لساني نقدي عربي أصيل،" مجلة العلوم الإنسانية العدد٣ (٢٠٠٦).
١٥ عناني، محمد المصطلحات الأدبية الحديثة، ط١ (مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦)، ١٩.
١٦ الطبرسي، أعلام الورى، ط٣ (طهران: دار الكتب الإسلامية، د.ت.)، ٣٦٦_ ٣٦٧.
١٧ علي بن عيسى الأربلي، كشف الغمّة (تبريز: مكتبة بني هاشمي، ١٣٨١ )، ١٩٢.
١٨ عباس القمي، الأنوار البهية (مشهد: مكتبة جعفري، د.ت.)، ١٥١.
١٩ الصدوق، معاني الأخبار (طهران: مكتبة الصدوق، مؤسسة دار العلم، ١٣٧٩)، ٦٥.

أشهر ألقابه الأُخرى هي: النقيّ والزكيّ[٢٠]، وكنيته أبو مُحَمَّد، كان عمره ٢٢ عاماً عندما استشهد أبوه الكريم، كانت إمامته ستَّة أعوام، وعاش ٢٨ عاماً، واستشهد سنة ٢٦٠هـ، ودفن في بيته بجوار أبيه في سامرّاء[٢١].

كان صاحب معالي الأخلاق الطيِّبة حتَّى مع أعدائه فضلاً عن مواليه، ففي حديث مُحَمَّد بن إسماعيل العلويّ قال: جلس أبو مُحَمَّدﷺعند عليّ بن أوتاش وكان شديد العداوة لآل مُحَمَّدﷺ، غليظاً على آل أبي طالب ... فما أقام إلّا يوماً حتّى وضع خدّه له، وكان لا يرفع بصره إليه إجلالاً وإعظاماً، وخرج من عنده وهو أحسن الناس بصيرةً، وأحسنهم قولاً فيه[٢٢].

**المبحث الثاني: دراسة تطبيقيَّة**

وتتجلَّى العظمة الأسلوبيَّة في كلام الإمام الحسن العسكريّ ﷺ في فصاحته وبلاغته، إذ يشتمل هذا الكلام على عبقريَّة الجمال اللَّفظيّ المتواشج مع الجلال المعنويّ، تلك العبقريَّة التي تتمثَّل في علاقة الألفاظ ببعضها، ودور ذلك في إيصال المعنى بما يتوافق مع سياق المقام ومقتضى الحال.

فقد أعطى الإمام العسكريّ ﷺ لكلِّ مقام قولاً دالًّا عليه، جميلاً في صياغته، ثرًّا في معناه، تداولته الناس، وحفظه التاريخ، فكان كلامه غاية في الصدق، فيه من السمات البلاغيَّة ما يجعل صياغته دقيقة في تشكيلها، وعظيمة في تأثيرها، فيخرج كلامه مؤنقاً بفصاحة تخلب اللُّبَّ، وتستولي على الأنفس التي تعشق البيان الواضح والبلاغة القويَّة.

**المعاني:**

نوّعَ الإمامُ العسكريُّ ﷺ في أساليبه البلاغيَّة بما يخدم المعنى من جهة، ويوافق مقتضى الحال من جهة أخرى، وإن كان جلُّ كلامه يدور في مدار الأسلوب الإنشائيّ القائم على الأوامر والنواهي، فغايته من القول النصح والإرشاد، ووسيلته في ذلك الفصاحة والبلاغة، ومن ذلك قوله ﷺ: **"لا تُمارِ فيذهبُ بهاؤك، ولا تُمازِح فيُجترَأ عليك"**[٢٣].

٢٠ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. دلائل الإمامة، ط٣ (قم: منشورات الرضي، ١٣٦٣)، ٢٢٣.
٢١ الشبراوي، عبد الله. الإتحاف بحبّ الأشراف، ط٢ (قم: منشورات الرضي، ١٣٦٣)، ١٧٨_ ١٧٩.
٢٢ المجلسي، محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٣ (بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣)، ج٥٠، ٣٠٧.
٢٣ العطاردي، عزيز الله .مسند الإمام العسكري أبي محمد الحسن بن علي ﷺ (قم، إيران: المؤتمر العالمي للإمام الرضاﷺ، ١٤١٠)، ٢٨١.

اعتمد الإمام ﷺ أسلوب النهي على سبيل النصح والإرشاد، وقد جاء النهي في صدارة الجملة، حاملاً معه دلالة الكفّ عن الفعل مشفوعاً بالسبب، وذلك من جهة بيان العاقبة أو بيان العلّة من الطلب، إذ يدعو إلى عدم الإمعان في الجدل في غير الحقّ؛ لأنَّ ذلك يسلب البهاء من المحيَّا، كما يدعو إلى عدم المزاح؛ لأنَّ ذلك يُذهب الهيبة، ويجعل الناس يجترؤون على كثير المزاح، وتتبدَّى بلاغة أسلوب النهي في هذا الموضع في ناحيتين: الأولى أنَّ الإمام ﷺ اختار النهي عن السلوك السلبيّ بدل تقرير السلوك الإيجابيّ؛ لأنَّ النهي هنا أوقع في النفس، وأدعى إلى الاستجابة، وقد جاء موقعه في صدارة الجملة لبيان الأهمِّيَّة. والثانية إلحاق النهي بالسبب، ولو اكتفى الإمام ﷺ بالنهي لما كان تأثير النصيحة في النفس كمثل أثرها مع ذكر السبب، فالإنسان يميل إلى معرفة موجبات النهي وأسبابه، والإمام ﷺ يراعي سياق هذا الحال بتبيان ما يرسِّخ النصيحة في الذهن، إذ يُلحق النصيحة بالسبب ليكون ذلك آكد في النفس.

ويمكننا أن نستدلَّ على بلاغة هذا الأسلوب وفصاحته في قولٍ آخر للإمام ﷺ، إذ يقول: **" واعلم أنَّ المدبِّر لك أعلم بالوقت الذي يصلح حالك فيه، فثق بخيرته في جميع أمورك يصلح حالك، ولا تعجل بحوائجك قبل وقتها، فيضيق قلبك وصدرك ويغشاك القنوط"** [٢٤]

يبدأ الإمام ﷺ كلامه بأسلوب الأمر الإنشائي الدالِّ على النصح والإرشاد (اعلم)، ولئن كان الخطاب موجَّهاً لشخص واحد، غير أنَّ دلالته على العموم واضحة، وجميع مواعظ الإمام ﷺ تخرج من الخاص إلى العام، حتَّى لوكان الخطاب مخصوصاً لشخص واحد، ثُمَّ يأتي فعل الأمر الآخر (ثق) ليؤكِّد أنَّ الخير فيما اختاره الله سبحانه، وأنَّه الأعلم بمواقيت الأمور التي يصلح بها حال العبد، وقد يدلّ غياب التعليل لفعل الأمر على بداهة الحكم الدينيّ المراد، ولكن حضوره اللاحق يعزِّز من قيمته التأثيريَّة، وذلك من ناحية سياق الحال أو المقام، إذ يستوجب حال المخاطبين أحياناً رفد الأمر بأسبابه، وذلك على سبيل دعم النصح أو الإرشاد بما يوجبه. وعليه، يأتي الأسلوب الإنشائيّ القائم على النهي ليبيَّن لنا سبيل الرشاد في قضاء الحوائج (ولا تعجل)، فاستعجال هذه الحوائج قبل وقتها يفضي إلى ضيق في القلب والصدر، وينشر القنوط واليأس في النفس، وبذلك يخرج النهي إلى دلالة

٢٤ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥، ٣٧٩.

النصح والإرشاد، ليضمر دعوة إلى التأنِّي وعدم الاستعجال، وتحذيراً من مغبَّة اليأس إذا طال زمن انقضاء الحوائج، وفقدان الإنسان للصبر على ذلك، وهكذا تتجلَّى بلاغة القول في بيان العلَّة من النهي، ممَّا يورث النصيحة والإرشاد القبول في نفس السامع.

أمَّا الأسلوب الخبريّ، فقد اعتمده الإمام العسكريّ عليه السلام في بعض كلامه، مستثمراً وظيفته التقريريَّة التي ترسِّخ المعنى في الذهن، كقوله عليه السلام: **"الجهل خصم، والحلْم حكم، ولم يعرف راحة القلب مَن لم يُجرِّعه الحلم غصص الغيظ"** [٢٥].

يبدأ الإمام عليه السلام كلامه بجملتين قائمتين على الاقتصاد اللُّغويّ، إذ تتشكَّل كلُّ جملة من مبتدأ وخبر، ضمن صيغة خبريَّة ابتدائيَّة تفيد أمرين: الأوَّل ثبوت الدلالة تبعاً للإسميَّة في ركنَي الإسناد، والثاني عدم حاجة هذه الدلالة للتأكيد تبعاً لبداهة الأحكام التي تتشكَّل من ركنَي الإسناد، فالجهل خصم للإنسان في تبعات أعماله وأقواله، والحلم ملازم للحكم في عواقب الأمور، وهكذا تُسند كلُّ قيمة أخلاقيَّة أو سلوكيَّة إلى ما يناسبها من دون الحاجة إلى التوكيد، أمَّا غاية الخبر الابتدائيّ فهي: تحريك الهمَّة إلى ما يلزم تحصيله من الحلم، ودفْع الجهل بالعلم.

أمَّا الجزء الآخر من الكلام، فهو لا يخرج عن سياق الأسلوب الخبريّ، ولكنَّه جاء مشفوعاً بفاعلية التصوير الجماليَّة، إذ يصوِّر الإمام عليه السلام الغيظ على أنَّه شيء يتجرَّعه الإنسان بمعونة الحلم، وفي ذلك راحة للقلب، وقد أضفت هذه الصورة الفنِّيَّة حيويَّة بلاغيَّة على الدلالة التقريريَّة الخبريَّة، ولا سيَّما أنَّها جاءت ضمن أسلوب النفي الذي أفاد الإثبات، وهكذا، فإنَّ إدراك الإمام عليه السلام لدقائق البلاغة، وجماليَّات الأسلوب، يجعل كلامه قريباً إلى العقول، ومستقرًّا في القلوب، ويلبس المعاني حلَّة قشيبة من الألفاظ التي تجلوها، بفصاحتها وبلاغتها، وتجعلها أقرب إلى الفهم والإدراك.

وقد تجد البلاغة مجالها في كلام الإمام العسكريّ عليه السلام من خلال التعبير المجازيّ الدالّ على الحقيقة بأسلوب غير مباشر، فينشط بذلك تفاعل السامع مع مضمون الكلام، ويصل المعنى إليه على حامل مجازي بليغ، كقول الإمام عليه السلام: **"بئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يُطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أُعطي حَسَدَه، وإن ابتلي خَذَلَه"** [٢٦].

٢٥ المجلسي، ج٧٥، ٣٧٧_ ٣٧٨.
٢٦ العطاردي، مسند الإمام العسكري أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام، ٣٨٢.

يستخدم الإمام ﷺ أسلوب الذمّ في حديثه عن النفاق الاجتماعيّ الذي يشين العبد، واصفاً إيَّاه بذي الوجهين وذي اللِّسانين، وهذا وصفٌ إحاليٌّ قائم على التعبير غير المباشر عن صفة مذمومة، إذ يمدح العبد أخاه في حضوره، ويبشّ في وجهه، ثُمَّ يطعن فيه بغيابه، ويقول عنه ما ليس فيه، وكأنَّ له وجهين ولسانين متناقضين يبدِّلهما من دون وازع أخلاقيّ، فهو بذلك يفتقر للصدق، وقد حقَّ فيه الذمّ.

لقد أدَّى التعبير (ذو الوجهين وذو اللِّسانين) دوراً دلاليًّا غير مباشر في الإحالة على المنافق، وبه رسَّخ الإمام ﷺ صفته في الذهن، ومدَّها بصورة مجازيَّة بيَّنت سوءتها، ثُمَّ أتبع ذلك بشرحٍ استوفى به تجلِّيَّات هذه الصفة المذمومة في السلوك الإنسانيّ، كإظهار الودِّ، وإضمار الشرِّ، والحسد عند العطاء، والخذلان عند الابتلاء، وقد جاء ذلك ضمن سياق تركيبيّ قائم على التوازيّ بين الجمل، ممَّا أكسب القول قدرة تأثيريَّة في السامع تنبع من اتِّساق الألفاظ وانتظامها، فتجد بذلك طريقها إلى الوعي على حامل لغويّ يفيض بالفصاحة والبلاغة، ويمكننا أن نلحظ استناد الإمام ﷺ إلى البلاغة القرآنيَّة في قوله (يأكله غائباً)، مستحضراً قوله تعالى في ذمِّ الغيبة: ﴿**وَلَا يَغْتَبْ بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ**﴾ (الحجرات ١٢)، كما يمكننا أن نلحظ فصاحة الإمام ﷺ في اختيار الألفاظ التي تناسب المقام من دون معاضلة.

**البيان:**

وتؤدِّي الاستعارة – بوصفها وسيلة بلاغيَّة – الدور نفسه في الإحالة على المعنى عبر علاقات المشابهة، وما ينتج عنها من المقارنات بين المتشابهات، وهذا أسلوب جماليّ يلقى أثره في السامع من خلال التجسيد أو التشخيص للأفكار العقليَّة والمعاني المجرَّدة، كقول الإمام العسكريّ ﷺ: " **مَنْ رَكِبَ ظَهْرَ الْبَاطِلِ نَزَلَ بِهِ دَارَ النَّدَامَةِ**"[٢٧].

تتجلَّى فاعليَّة الاستعارة البلاغيَّة هنا في الربط بين الصور المعنويَّة والحسِّيَّة، إذ يستعير الإمام ﷺ صورة المطيَّة التي يركبها الإنسان في سفره للوصول إلى غايته، ويُسقطها على (الباطل)، وتؤدِّي القرائن اللَّفظيَّة (ركب، ظهر) دوراً دلاليًّا في الإحالة على علاقة المشابهة

٢٧ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥، ٣٧٩.

بين المطيَّة والباطل، كما يعمد الإمام ﷺ إلى الربط بين المحسوس (الدار) والمعنويّ (الندامة) في صورة بلاغيَّة توضِّح مآل مَن يتَّخذ الباطل مطيَّة له، وإنَّما أراد الإمام ﷺ أن يقول: إنَّ مَن يمارس سلوكاً باطلاً سيندم عليه لا محالة، ولكنَّه يوشِّي هذا القول بحلية بلاغيَّة قشيبة، نقلت المعنى العقليّ إلى مجال الحسِّ، ليكون ذلك أدنى إلى الإدراك من جهة، وأدَّعى إلى التأثير من جهة أخرى، فالمعاني العقليَّة تجد طريقها إلى الأذهان محفوفةً بالجمال إذا ما سيقت على حامل بلاغيّ فصيح، وقد حدّد أبو هلال العسكريّ الاستعارة وأغراضها بقوله عنها تعريفاً: "الاستعارة: نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللُّغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إمَّا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللَّفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه"[٢٨]. وقد استوفت الاستعارة في قول الإمام ﷺ هذه الأغراض، وأدَّت دورها على أكمل وجه ممكن.

ومثل هذا التشكيل الاستعاريّ نجده في قول آخر للإمام ﷺ، ولكن للتعبير عن سفر من نوع آخر، وهو السفر إلى الله ﷻ، قال الإمام العسكريّ ﷺ: **"إنَّ الوصول إلى الله ﷻ سفرٌ لا يُدرك إلَّا بامتطاء الليل"**[٢٩].

فهنا استعارة يتحوَّل فيها الليل إلى مطيَّة تصل بك إلى الله سبحانه، وبذلك يتجاوز الليل دلالته الوضعيَّة المعجميَّة، ويغدو وسيلة بلاغيَّة مجازيَّة توحي بالمعنى الذي يريده الإمام ﷺ، فقيام الليل للتعبُّد والتهجُّد يقرّب العبد من الله ﷻ، وهذا القيام بمنزلة المطيَّة التي تعين العبد على سفره، وتحمله إلى غايته، وأي غاية أسمى من الوصول إلى مرضاة الله ﷻ، وقد أدَّت القرينة اللَّفظيَّة (امتطاء) دورها في نقل المعنى المراد لليل بأسلوب استعاريّ لا يخلو من فصاحة تُنزل الكلمات منازلها الجديدة من خلال العلاقات السياقيَّة التي تتفاعل في القول لتنتج أثراً جماليًّا يلقى صداه في قلب السامع وعقله على السواء.

ويعضِّد هذا الأسلوب الاستعاريّ أسلوبٌ خبريّ توكيديّ تقريريّ، يرسِّخ المعنى المراد في الذهن، إذ يفتتح الإمام ﷺ قوله بالأداة (إنَّ) التي تفيد التوكيد، لينسدرج الكلام تحت

٢٨ العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل. كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر، تحقيق. محمد أبو الفضل البجاوي، علي محمد إبراهيم (بيروت – لبنان: المكتبة العصرية، ١٤١٩)، ٢٦٨.

٢٩ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥، ٣٨٠.

الخبر الطلبيّ، ويأتي هذا الضرب من الخبر غالباً حين يكون المخاطَب "متردِّدًا في الحكم، طالباً لمعرفته، فيُستحسن تأكيد الكلام المُلقى إليه تقوية للحكم ليتمكَّنَ من نفسه، ويطرح الخلاف وراء ظهره"[٣٠]، هكذا يمنح التعاضد الأسلوبيّ بين الخبر الطلبيّ والاستعارة البيانيَّة قوَّةً للمعنى المراد، ترقى بفصاحته وبلاغته، إضافةً إلى أسلوب القصر الذي يفيد التحديد، فيشدّ ذلك كلّه انتباه السامع إلى مضمون الحكم الدينيّ الذي يرومه الإمام ﷺ.

**البديع:**

ولا يخلو بعض كلام الإمام العسكريّ ﷺ من حلية لفظيَّة أو معنويَّة تُسهم في تقوية المعنى، وتسبغ عليه من فنون البديع ما يرفعه إلى مقام الفصاحة والبلاغة، إذ ترتبط الوظيفة الجماليَّة للبديع بالتناسب الذي يحدِّثه في النصِّ، سواء أكان هذا التناسب لفظيًّا أو معنويًّا، ولهذا ارتبطت تلك المحسِّنات البديعيَّة عند أكثر البلاغيّين بما أسموه المناسبة والملاءمة والترابط والتلاحم وغير ذلك.

كما يمكننا القول إنَّ الوظيفة الجماليَّة للبديع مرتبطة بالوظيفة الدلاليَّة، وما يتركه هذا الفنّ من أثر لا يقف عند حدود الصوت أو اللَّفظ أو المعنى، وشرط ذلك ألَّا يكون البديع في النصِّ تكلُّفاً، بل جزءاً من البنية النَّصِّيَّة، وملمحاً من ملامح الدلالة التي لا تكتمل إلَّا به، وهذا ما نجده في كلام الإمام العسكريّ ﷺ، إذ توظّف البلاغة البديعيَّة ضمن سياق يخدم المعنى، ويرفده بمحاسن تعمِّق من أثره في النفس، كقوله ﷺ: "**حُسْن الصورة جمال ظاهر، وحُسْن العقل جمال باطن**"[٣١].

يؤدِّي الطباق بين الظاهر والباطن دوراً جماليًّا ودلاليًّا في الوقت نفسه، فقول الإمام ﷺ يُثبت الجمال للصورة والعقل، ولكنَّه يفرِّق بينهما في أنَّ الأوَّل ظاهرٌ، والثاني باطن، والتضادّ هنا لا ينفي صفة الجمال عن الصورة، ولكنَّه يُضمر دعوة إلى التماس الجمال الباطنيّ في التدبُّر والتفكير، وإلى العناية بأمر العقل كما الصورة، ليقترن جمال الظاهر بجمال الباطن، وبذلك فإنَّ الطباق هنا يدفع السامع إلى تلمُّس المعاني المخبوءة خلفه، ولا يقف عند حدِّ الزينة

٣٠ الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ٥٧.
٣١ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥، ٣٧٩.

اللَّفظيَّة، فوظيفة الطباق لا تقف عند هذا الزخرف وتلك الزينة الشكليَّة، بل تتعدَّاها إلى غايات أسمى، فلا بدَّ أن يكون هناك معنى لطيف ومغزى دقيق وراء جمع الضدَّين في إطار واحد، وإلَّا كان هذا الجمع عبثاً.

وقد يكون الطباق في كلام الإمام ﷺ وسيلة للتفاضل بين أمرين، وترجيح لكفَّة أحدهما على الآخر، كقوله ﷺ: **"مَن أَنس بالله استوحش الناس، وعلامة الأُنس بالله الوحشة من الناس"**[٣٢].

تتبدَّى فصاحة الأسلوب الشرطيّ وبلاغته من خلال الجمع بين نقيضين يتفاضلان في ذهن السامع، وهما الأنس والوحشة، فالأنس بالله ﷻ يورث الوحشة من الناس، وهذه دعوة إلى التقرّب من الله سبحانه، وذلك من خلال فاعليَّة التضادّ في الإحالة على المعنى، فالضدّ يُظهر حسنه الضدّ، واجتماع النقيضين في الكلام كفيل بمقاربة القارئ لهذا الكلام من منظور تفاضليّ لطرفَي النقيض، فيميل إلى ما يستحقّ الميل له، وينفر من الآخر. وهكذا فإنَّ للطباق وظيفة معنويَّة، إذ يزداد المعنى بتوظيفه وضوحاً وقوَّةً؛ لإيراد المعنى مع ضدَّه.

وقد اعتنى الإمام العسكريّ ﷺ بالسجع في بعض كلامه، وذلك لأسباب جماليَّة نفسيَّة تتَّخذ من الإيقاع المتواتر سبيلاً إلى عقل القارئ وحافظته، "ألا ترى أنَّ المثل إذا كان مسجوعًا لذَّ لسامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنسِ النفس به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له وجيء به من أجله"[٣٣]. ويمكننا أن تستدلَّ على ذلك بقول الإمام العسكريّ ﷺ: **"مَن كان الورع سجيّته، والأفضال حليته، انتصرَ من أعدائه بحسن الثناء عليه، وتحصَّن بالذّكر الجميل من وصول نقصٍ إليه"**[٣٤].

لا يقترن السجع بالجمال إن لم يكن لاحقاً بالمعنى، غير متكلِّف لذاته، وهذا ما نجده في قول الإمام ﷺ، فقد جاءت نهايات الجمل على نسق إيقاعيّ واحد، مع التنويع في التقفية: (سجيّته، حليته)، (عليه، إليه). وقد أدَّى هذا النسق دوراً في فصاحة القول وبلاغته، ذلك أنَّ المعنى الجليل الذي يتضمَّنه مسربلٌ بلغة ذات رونق وجمال، فالورع والفضل يستجلبان

٣٢ المجلسي، ج٧٥، ٣٧٩.
٣٣ الموصلي، أبو الفتح عثمان بن جني. الخصائص (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.)، ج١، ٢١٧.
٣٤ المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج٧٥، ٣٧٨.

الثناء ويُبعدان النقص عن الإنسان، وتفاعل السامع مع مضمون هذا القول مشفوعٌ بما يبثُّه سياق السجع من جوٍّ تنغيميّ يُسهم في خلق أريحيَّة نفسيَّة لديه، بما ينعكس على تفاعله مع القيمة الأخلاقيَّة في القول، فتتآزر القيمتان: الإيقاعيَّة والأخلاقيَّة لإنتاج القيمة الجماليَّة التي يتَّسم بها كلام الإمام ﷺ.

ونجد مثل هذا التناغم الجماليّ بين الصوت والمعنى في الجناس، إذ يأتي الجناس في كلام الإمام ﷺ من غير تكلُّف أو صنعة مقصودة لذاتها، وذلك ليعضِّد المعنى بجماله الإيقاعيّ، لا لينوب عن المعنى في الأهمِّيَّة، ويصرف الذهن عنه، كقوله ﷺ: **"إذا نشطت القلوب فأودعوها وإذا نفرت فودّعوها"**[٣٥].

يدعو هذا القول إلى إيداع المعارف والعلوم في القلوب حين نشاطها، أمَّا إذا نفرت هذه القلوب من ذلك فهي مغيّبة عن الحقيقة، وصارت بمنزلة الراحل الذي نودِّعه، وقد أدَّى الجناس بين اللَّفظتين (أودعوها، ودّعوها) دوراً في الانتباه إلى المعنى المراد، إذ يركّز السامع عليهما تبعاً لائتلافهما الصوتيّ، ثُمَّ يتقرَّى العلاقة العكسيَّة بينهما من حيث ارتباط الإيداع بنشاط القلوب، والوداع بنفورها، فيحقِّق الإمام ﷺ غايتين: الأولى استقرار القول في الذهن لسهولة حفظه وتداوله تبعاً لتجانس ألفاظه، والثانية استقرار المعنى في الذهن أيضاً، تبعاً للدلالات المتولِّدة عن الجناس، وعلاقاته ببقية الألفاظ. وهكذا نجد أنَّ المجانسة اللَّفظيَّة لم تكن غاية بذاتها في هذا السياق، وإنَّما جزءاً أصيلاً منه للتعبير عن المعنى، ووسيلة من وسائل الفصاحة والبلاغة في الكلام.

**الخاتمة:**

وبعد، لقد جاء كلام الإمام العسكريّ ﷺ على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة، لاشتماله على ألفاظ بعيدة عن التنافر، تُحيل على معاني شريفة وقيم أخلاقيَّة سامية، وليس هذا بغريب عن صفات الأئمَّة الكرام من آل البيت، إذ ينهل الإمام العسكريّ ﷺ من معاني القرآن الكريم، وتراث أجداده الأطهار، ثُمَّ يوشِّي كلامه وأحكامه ومواعظه بأساليب البلاغة والفصاحة التي تناسب المواقف والأحداث، فيُنزل الأسلوب الخبريّ في موضعه

٣٥ المجلسي، ج٧٥، ٣٧٧.

ضمن الخطاب التقريريّ للعقل، ويتَّخذ من الأسلوب الإنشائيّ وسيلة لإثارة الاستجابة النفسيَّة عند السامع، كما ينحو بمجازه البلاغيّ واستعاراته الجماليَّة منحى التقريب بين العقليَّات والحسِّيَّات، على سبيل التمثيل الحسِّيّ التصويريّ للمعاني العقليَّة المجرَّدة، وترفد أساليب البديع - بمحسِّناتها اللَّفظيَّة والمعنويَّة - كلامَ الإمام العسكريّ ﷺ بأسباب الجمال من غير تكلُّف، فيأتي كلٌّ من الطباق والجناس والسجع عفو الخاطر، ليزيد من بهاء الكلام ورونقه، ولا يتأتَّى ذلك إلَّا لمن خبر جوامع الكلم، وعرف دقائق اللُّغة، فترك لنا تراثاً زاخراً من الأحكام الدينيَّة المسربلة بالفصاحة والبلاغة، وألزمنا الحجَّة في أقوالنا وأفعالنا، نستهدي بما جاء به، ونسير على نهجه إن شاء الله.

**المصادر.**

القرآن الكريم
ابن منظور. لسان العرب، مج١. ط٥. بيروت: دار صادر، ٢٠٠٥.
الأبشيهي، شهاب الدين. المستظرف في كل فن مستطرف. قدم له وعلق عليه مفيد قميحة. بيروت – لبنان: دار الكتب العمية، د.ت.
الأربلي، علي بن عيسى. كشف الغمّة. تبريز: مكتبة بني هاشمي، ١٣٨١هـ.
البسيوني، محمود. تربية الذوق الجمالي. القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٦هـ.
الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البيان والتبيين، ج١. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مطبعة الخانجي، د.ت.
الجرجاني، علي بن مُحَمَّد الشريف. معجم التعريفات. تحقيق ودراسة صديق المنشاوي. القاهرة – مصر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ٢٠٠٤.
الزبيدي، مُحَمَّد مرتضى الحيني. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق إبراهيم الترزي. دار إحياء التراث العربي ببيروت، د.ت.
الشبراوي، عبد الله. الإتحاف بحبّ الأشراف. ط٢. قم: منشورات الرضي، ١٣٦٣.
الصدوق. معاني الأخبار. طهران: مكتبة الصدوق، مؤسسة دار العلم، ١٣٧٩هـ.
الطبرسي. أعلام الورى. ط٣. طهران: دار الكتب الإسلامية، د.ت.
الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير. دلائل الإمامة. ط٣. قم: منشورات الرضي، ١٣٦٣هـ.
العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل. كتاب الصناعتين – الكتابة والشعر. تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل البجاوي، علي مُحَمَّد إبراهيم. بيروت – لبنان: المكتبة العصرية، ١٤١٩هـ.
العطاردي، عزيز الله. مسند الإمام العسكري أبي مُحَمَّد الحسن بن علي ﷺ. قم، إيران: المؤتمر العالمي للإمام الرضا ﷺ، ١٤١٠هـ.
الفراهيدي، الخليل بن أحمد. العين، ج١. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢.
القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع. وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين. ط١. بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.
القمي، عباس. الأنوار البهية. مشهد: مكتبة جعفري، د.ت.
المجلسي، مُحَمَّد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار. ط٣. بيروت – لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣.
الموصلي، أبو الفتح عثمان بن جني. الخصائص. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.
الهاشمي، أحمد. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع. ضبط وتدقيق وتوثيق يوسف الصميلي. بيروت – لبنان: المكتبة العصرية، ١٩٩٩.
زيوان، فاتح. "نحو خطاب لساني نقدي عربي أصيل."مجلةالعلومالإنسانيةالعدد٣(٢٠٠٦).
عناني، مُحَمَّد. المصطلحات الأدبية الحديثة. ط١. مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٦.